الكاهن اليوم؟ لماذا؟ وكيف؟

مشكلة الكاهن

من القضايا التي تطالعنا بها الأحداث التي تتعاقب، والتيّارات التي تتجاذب، مشكلة الكاهن في عالم اليوم: مشكلة متعدّدة الجوانب، مختلفة الوجوه، متفاوتة الأثر، تتأصّل جذورها في صميم الإنسان الذي وقف نفسه للرسالة السميا، وتمتدّ إلى البيئة التي تلقّه من كلّ صوب. وقد طفق القوم ينظرون إليه نظرة يشوبها القلق الحائر أو العداء السافر أو الانتقاد المرّ. وقلّما يجد حوله مَن يُشجّع ويُساند، فيغضّ الطرف عن نقص ويتبرّع بالثناء ويرضى عمّا يبدو من سلوك.

وعالم اليوم، المتحفّز في اندفاعه شطر كلّ رفيع من المناصب، وعميم من المكاسب، وممتع من اللذائذ، ورحراح من عيش التحرّر والانفلات، لا يفسح في المجال وسيعًا لمَن وطّن نفسه على الزهد في ذلك كلّه. وبطلٌ أيّ بطل مَن يختم عينيه وأذنيه وقلبه عمّا يُبهر ويسحر ويفتن، ليشرعها على ما فيه الخير والحقّ وكريم المُثُل. أجل! ما كان يومًا الجود بالذات في الكهنوت أمرًا ميسورًا. ولكنّه في عهدنا أمعن في المشقّة والوعورة، تصاوله من داخل أثرَة مستشرية تهفو إلى اغتنام مفاتن العصر، ويقابله من خارج فتور واستهجان واستصغار قدر. وقد احلولكت حوله الآفاق، وكادت تعمى عليه السبل، بعد أن شكّك قوم في ضرورته وأهمّيته، بل تحلّل بعض أربابه في دواعيه والتزاماته، وتذرّعوا لذلك بشتّى الأسباب ومختلف المعاذير.

الحاجة إلى الكهنة

ولكنّ الكنيسة اليوم، أكثر منها في أيّ زمن مضى، بأمسّ الحاجة إلى رجال الكهنوت، وفرة عدد، وأصالة جودة. فإذا ما تفاقم إحجام المحجمين

عنه، وتضاءل عدد المُقبلين إليه، ستحدث فجوة كبيرة بين إلحاح مقتضيات الحياة الروحيّة والاجتماعيّة، وندرة مَن يُعوّل عليه فيها. ولئن استحكمت البطالة في العديد من ميادين العمل، فليس لها في صفوف خدمة الأقداس، من نصيب. إللهمّ إلاّ مَن رضي بالإخلاد إلى الكسل وأسلم قياده للتلهّي، أو عصب عينيه فلا يبصر الأيدي الممتدّة إليه، وصمّ أذنيه فلا يسمع الأصوات المستغيثة به. فالكاهن ما برح الأخ والصديق، والمرشد والرفيق، في الريف الساكن والمدينة الصاخبة، في نوادي الشباب الضاجّة بالفتوّة والحيويّة، ومجالس الكهول المتميّزة بالجدّ والرويّة، في المصانع والمدارس والمشافي، في السجون والمياتم والمآوي، في مجالات العلم ومواطن الفكر ورحاب الفنّ، في كلّ مكان يعيش فيه الإنسان، ويعمل فيه الإنسان، ويشعر فيه الإنسان بقلق الوجود ورهبة المصير وتململ الروح والنـزوح إلى المطلق.

ولذا ما انفكّ صوت الكنيسة جيلاً بعد جيل يُصدي المعلّم في الإنجيل، داعيًا إلى المشاركة الحرّة في رسالة العطاء والفداء. والأمل ألاّ يكون شباب العصر، الثائر على ما يمتهن كرامة الإنسيان، والطامح إلى بناء المجتمع المثال، متخلّفًا في موكب التضحية ومتهافتًا في ركب البطولة. أمّا أولئك المنصرفون عن جليل القيم إلى الدناءات واللامبالاة والضياع، أو الراتعون في خضر الدمن يعبّون من مسنون المنافع، فقد نفض المسيح منهم يده، وشيّعتهم الأخلاق والرجولة والأوطان إلى حيث يلفّهم كفن الأنانيّة الخمول والنسيان.

استمرار وتطوّر

والكهنوت، في مفهومه الأصيل، هو هو على الدوام، في نه جوهره وحقيقته وأساس رسالته ووساطته. ولكنّ فيه أيضًا من الأعراض والأشكال

ما يتأثّر بالبيئات، فيتبدّل مع الزمان ويتغيّر مع الأحوال، ويعكس مظاهرها ويصطبغ بألوانها، فتبرز منه أحيانًا ملامح وتخفه عنه أحيانًا سمات. وعصرنا المتسارع التطوّر على كلّ صعيد، الجامع بين سكّان الأرض بتقريب المسافات وتوثيق الصلات، يُجبه الكاهن بمعضلاته وتطلّعاته، فيقف متسائلاً: ماذا عليه أن يفعل؟ وماذا يجب أن يكون؟ ليستجيب لدواعي الزمن، فيقلع من رميم التقليد وينطلق في سليم التجديد، فلا تخمد نار المشعل الذي يضيء به ظلام الناس، ولا يتفُه طعم الملح الذي يقدّمه على مائدة الدنيا.

لم تُتح لنا الظروف، حتّى الآن، أن نقوم بتحقيق كامل شامل، يُبيّن ما تقتضي رجال الكهنوت بيئتُنا الشرقيّة المعاصرة، وما يقول الناس عنهم ويرجون منهم. ولم يتأدَّ إلينا أيّ استقصاء لهذا الموضوع، انتظم مختلف البيئات، وجميع شتيت الآراء واستقرى الدلائل والوقائع، واستخلص منها العبر والنتائج. أمّا الغرب فقد شآنا في هذا المضمار، إذ توفّر علماؤه على أساليب الاستبيان، يستوضحون بها ما اشتُبه من آراء، ويستطلعون ما انتشر من أفكار، ويوفّرون لأصحاب الشأن مرتكزًا قويًّا يستندون إليه وينطلقون منه لتحقيق الإصلاح المنشود وتوجيه التطوّر المرتقب.

وريثما يتحصّل لنا مثل هذا الاستقصاء، رأينا أن نورد ما يلي، وعلى سبيل المثال، مقتطفات من شهادات وأقوال تضمّنتها وثيقة ظهرت في فرنسا منذ عهد قريب. فهي تقع في ١٦٤ صفحة، وفيها يتحدّث خمسون ألفًا من المسيحيّين العالميّين عن شؤون الكاهن والدين. وإنّك لتجد بينهم المحافظ المتشدّد والتقدّمي المجدّد، وتقرأ أخلاطًا من الأفكار وأنماطًا من الرغائب تدلّ على واقع التباين وتشعّب المذاهب. وهذا بعض ما جاء فيها:

رجل الله ورجل الجميع

ليكن الكاهن عونًا للناس في التنبّه لصوت الله الناطق بالأحداث. وأمنيتنا أن يكون قريبًا منهم، منفتحًا على مصاعبهم، مهتمًّا لقضاياهم، لا يتشاغل عنهم، بل يُقبل على الإصغاءإليهم. ورغبتنا أن يولي التبشير مزيدًا من العناية فيستغلّ مناسبات خدمته الرعائيّة للهداية... وأن يجود بالنفس، ويمارس الفقر، ويشهد بالحياة لدعوة الإنجيل: تركوا كلّ شيء وتبعوه. وهكذا يصبح بحياته كلّها رسولاً، لا إنسانًا كسائر الناس يقصر مهمّته على الاحتفال بالإفخارستيّا. وجملة القول إنّنا نريد الكاهن رجل الله ورجل الجميع ليُبشّر بيسوع المسيح. عرفنا فيما مضى كهنة يحدّثوننا عن الله ويسكتون عن حقائق العالم. ونرى اليوم، ببالغ الأسف، كثيرين غيرهم يشتطّون في ردّة معاكسة، فلا يتحدّثون إلاّ عن العالم ويصمتون عن يسوع المسيح. والمراد هو أن يجمعوا الطرفين، وإلاّ بعثوا في نفوسنا القلق والإشفاق على ما ينبغي أن تنشأ عليه الشبيبة من إيمان.

أب لا رئيس

أترقّب من الكاهن (وكثيرًا ما وجدت مبتغاي) أن يكون مترع النفس حتّى الفيض من يسوع المسيح، مشبع الحياة حتّى الإشعاع من نور المسيح، فلا نلقاه إلاّ وجدنا فيه المسيح. نريده إنجيلاً حيًّا. ولئن صحّ ذلك في كلّ مسيحيّ ففي الكاهن يجب أن يتبدّى بأجلى وضوح، ليكون ذلك الإنسان الذي يعيش ملء حياته تطويبات الإيمان. ليكن إنسانيًّا، أجل! على شاكلة المسيح. لأنّ ذلك أوّل ما يسترعي الانتباه. لكين إنسانًا كسائر الناس، يشاطرهم أفراحه وأتراحه وأحزانه ومصاعبه، ويُقرّ بعجزه وأخطائه، ويُدرك أنّه، كسواه، يبحث عن تحقيق إيمانه، ويرضى بالعون يأتيه من غيره.

لكَم خالَ الناسُ الكاهن من غير طينتهم، لا تنال منه الأتعاب وعنده الكلّ سؤال جواب. فكأنّما احتلّ سدّة الرئاسة فبات عزيز المقام ولا سبيل إلى مطارحته الكلام... أوَلَم يساهم الكهنة أنفسهم بسلوكهم في بلوغ هذي الحال؟ يحوّطهم، ويا للخسر! واهم التقدير بباهر الجلالة والسناء بينما يقتضيهم الواجب أن يكونوا لنا آباء.

صلاة وخدمة

نبتغي من كهنتنا، قبل كلّ شيء، أن يكونوا رجال الله، فيتساموا فوق الآخرين ويصلّوا ليظهروا على التجارب، لا أن ينشطوا للندوات والثرثرات والمناقشات العلنيّة في الكنيسة، فيفسحوا في المجال للشيطان لينتصر ويزرع بذور الشكّ في الأذهان. ليقوموا بعيادة المرضى، وإذا حالَ دونها تراكم الأشغال فليستعينوا بالعالميّين ويرعوا هم شؤون المُدنفين.

استبشار في العمل والرسالة

أولئك الكهنة الذين وهنت عزائهم وهمد نشاطهم وتبيّن حزنهم، أتراهم لأولادنا مثالاً يُحتذى أم حاجزًا دون تدفّق أفراح الكهنوت؟ ونداءات الكهنة المعترضين، أليست، على توشّحها بالأسى، دعوة لنا نحن المسيحيّين، إلى التيقّظ والسموّ واستجداد الرؤيا. فننظر بعين القلب إلى حقيقتهم وهدف اختيارهم، ومرمى العذاب الذي يقاسون ومُؤدّى المحاولات التي يعيشون.

وإنّنا لنسأل الله، في خضمّ هذا العالم الذي لفحته سمائم الرياح لتجرّد إنسانه من إنسانيّته وشخصيّته، أن يهبنا كهنة أعلق بالرسالة وألصق بالإنجيل وأهنأ في الكهنوت، فيمدّوا الناس بالمساعدة ويُحبّبون إليهم الحياة الصحيحة التي يريدها لنا الله.

واقعيّة في التعليم

عاملونا في خبطكم معاملة الراشدين الكبار وليس كإخوة وأخوات لكم صغار، واعتبرونا في علاقاتنا بكم كزملاء لكم لا كأولاد أغرار، وليكن ما تُلقّنونا من تعليم ألصق بالواقع وأعمق في المُؤدّى وأقرب إلى المستمع. فالعقائد المسيحيّة ما كانت قطّ على مستوى الذهن العفويّ، فيتقبّلها الإنسان بالسليقة، ولا استثني الكاثوليك المتديّنين ولا أنتم أنفسكم. إنّ الشكوك التي تخامركم هي شكوكنا، فلا تتحاشوها، بل احسبوا أنفسكم مثل توما على هارٍ من الإيمان، ودعونا، بما أنّ المسيح ارتضى ذلك نجسّ بواسطتكم جراح يديه ورجليه وجنبه.

أمّا الاعتراف فعلينا، نحن وأنتم، أن نُعيد النظر فيه كلّيًّا، ليستردّ هذا السرّ، حتّى على الصعيد الإنسانيّ، الفاعليّة المرجوّة من تلك الثقة العجيبة التي تصل التائب بالمرشد.

مشاطرة العمل

على الكاهن أن يذيع الكلمة بأسلوب مأنوس، فيُبشّر الناس بيسوع المسيح حيث يعيشون وباللغة التي يفهمون. ويقتضيه الأمر أن يعايش مَن أُرسل إليهم ويخاطبهم بلغتهم. ويعني ذلك، في الواقع، ومع مراعاة ما خلّفه الماضي من ثقيل التراث، أن يتّسع للكهنة مجال الخيار بين وفير الخدم، فيستطيع معظمهم أن يختصّوا بهذا أو ذلك من وجوه العمل. أمّا ارتجال شخصيّة الفلاّح أو العامل أو البحّاثة والعالم فأمر مستحيل، ولا مناص من إعداد جدّي ومدى طويل من التعايش الودّي.

ومن الواضح أنّ التعايش يعني مشاطرة العمل الذي له في حياة الناس واسع المدى. أجل لا إخال العمل علاجًا شافيًا لكلّ علّة ولا مفتاحًا صالحًا لكلّ باب. ولكن ما دام العمل في عصرنا يشغل الحيّز الذي نعلم من الحياة

اليوميّة، فلن يتأتّى للكاهن، على ما أظنّ، أن يُبشّر الناس بيسوع المسيح ما لم يشاطرهم العمل على وجه صحيح.

أجل! لا مندوحة عن كهنة يؤمّنون الدوام. ولكنّ عددهم سيتضاءل إذا ما وطّدنا العزم نهائيًّا على التخلّي عن مهمّات الإدارة الكنسيّة الزمنيّة، للمسؤوليّة العالميّة، بدءًا بالمكاتب الرومانيّة حتّى أصغر رعيّة. فنطلق يد المؤمنين في العمل ولا نستردّ في الخفاء ما أُعطينا في الجهر. ما أكثر الكهنة الذين تكاد حياتهم تقتصر على معالجة شؤون الإدارة والمال: حقًّا إنّ في ذلك لنا حجر عثار. ويلوح لي أنّه إذا ما أُقصيت جميع تلك المهام الخارجة عن نطاق الكهنوت فسيُصبح عدد الكهنة وافيًا بالاحتياجات الكنسيّة والبشارة الإنجيليّة.

بين الله والعالم

عملي يربطني بمستشفى. فأنا إذن غارق حتّى الرأس في العالم. وأيّ عالم ذالك؟ لعلّه الأشقى والأفقر، ولكنّه الأجدر باهتمامنا نحن الذين حظينا بتربية مسيحيّة في حضن الكنيسة. لمَ يذهب الكاهن إلى العالم؟ وماذا عساه يفعل أكثر ممّا أفعل؟ العذاب والشرّ هما أبديّان، وسعي الكاهن الذي يريد أن يذهب إلى العالم سيكون بلا جدوى إذا ما قيس بالمهمّات المتوجّبة عليه حقًّا. مساعي الكاهن لن تحلّ المشاكل الاجتماعيّة وإنّما تحلّها الطاقات الحكوميّة...

أرجو الكثير من الكاهن: أرجو أن يُنيلني ما أنا بحاجة إليه، أي الله. العالم؟ أنا منغمس فيه طوال النهار. يوم الأحد تلحّ بي الحاجة إلى الانفراج والتخلّص من هذا الشقاء. فآتي إلى القدّاس لأشعر بالنسيم المنعش يهبّ عليّ والسلام الهانئ يحلّ فيّ والصلاة الهادئة تغمر كياني. ما حاجتي إلى كاهن يحدّثني عن الالتزام: فأنا ملتزمه. ماذا إذن؟ حاجتي إلى كاهن لا نقابيّ (كم

أعرف من عمّال أجدر من الكاهن بهذه المهمّة!). إذا استطاع الكاهن أن يحمل كلاً من أبناء رعيّته على الصلاة وإن دقيقة واحدة في اليوم فقد أحرز النجاح والباقي يُزاد له.

تربية الإيمان

أرجو الكثير من الكاهن مربّيًا للإيمان لا موّزعًا للأسرار فحسب، على كون هذه ضرورة حيويّة لي. وأرغب أن يُعيننا على النظر بعين المسيح إلى حياتنا وأعمالنا ورفقائنا وارتباطاتنا الإنسانيّة. أنا مدين للكهنة بما توفّر لي من تعمّق إيمانيّ وتوثّق في التزامي الإنساني حيال شتّى الفرقاء. ولكَم أودّ أن يحترم الكاهن مسيرة المؤمنين العالميّين، وما تتكوّن منه حياتهم، وما يدخل في نطاق مسؤوليّاتهم العائليّة والمهنيّة والنقابيّة والسياسيّة. وبهذا الاحترام يوطّئ لهم السبيل ليبلغوا حقًّا مبالغ الرجال.

تلك الطاقة من آراء أبداها إخوان لنا في محيط غريب عنّا. فهلاّ عكفنا نحن أيضًا على استجلاء الصورة المُثلى للكاهن في بلادنا، حتّى يظلّ على الدوام مسيحًا آخر يعيش فيما بيننا؟

منصور الأب حنّا البولسي، **الكاهن اليوم؟ لماذا؟ وكيف؟**، المسرّة، مجلّة شهريّة بإدارة الآباء البولسيّون، السنة السادسة والخمسون، العدد ٥٥٢، شباط، المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ١٩٧٠، صفحة ٨١-٨٧.